الفصل الحادي عشر

الحرب

وبيان هتلر الأول

obeikandl.com

obeikandl.com

يقول تشرشل :

أصدر هتلر بيانه الأول في الحادي والثلاثين من شهر آب :

١ ـ لما فشلت جميع الاحتمالات السياسية لتسوية الوضع على الحدود الشرقية بطريقة سلمية ، ولما كانت الأوضاع الراهنة غير محتملة ، فقد قررت أن أفرض الحلول بالقوة .

٢ ـ يجب تنفيذ الهجوم على بولندا حسب الخطة المرسومة ، وقد تقرر موعد الهجوم يوم الأول من شهر أيلول عام ١٩٣٩ في تمام الساعة الرابعة والدقيقة الخامسة والأربعين صباحًا.

٣ ـ من المهم أن يكون الاعتداء من جانب إنكلترا أو فرنسا ، بشكل واضح ، وفي حال وقوع حوادث طفيفة على الحدود ، يجب الاكتفاء بالعمل المحلي فقط .

وهكذا قامت ألمانيا بهجومها على بولندا في صباح الأول من شهر أيلول عام ١٩٣٩ ، كما أصدرت حكومتنا أمرها بتعبئة جميع القوات المسلحة ، وبعد ظهر ذلك اليوم طلب مني رئيس الوزراء أن أحضر لزيارته في دوانغ ستريت ، وقد قال لي: «إنه لم يعد هناك من أمل في تجنب الحرب مع ألمانيا ، لذلك فهو يقترح تشكيل وزارة صغيرة للحرب ، تضم وزراء دون وزارات معينة لتسيير دفة الحرب» ، وقال: «إن حزب العمال غير مستعد للاشتراك في حكومة ائتلافية ، أما الأحرار فهم يطلبون المشاركة في الحكم» ، ثم طلب مني أن أكون عضوًا في تلك الوزارة الحربية، وقد وافقت على هذا الاقتراح دون أي تعليق .

وفي المساء انعقد المجلس ، وألقى رئيس الوزراء خطاب تهدئة استقبله المجلس استقبالاً سيئًا، وعلا الصراخ والهتافات ، ولم يكن ثمة شك في أن المجلس استقبل استقبالًا سيئًا ، وعلا الصراخ والهتاف، ولم يكن ثمة شك في أن التاسعة والنصف مساء ، وأن هذا الإنذار سيعقبه إنذار ثان وثالث ، وأعلنت الإذاعة أن رئيس الوزراء سيوجه كلمة إلى الشعب في الساعة الحادية عشرة والربع من صباح الثالث من أيلول ، أي بعد أن تنتهي مهلة الإنذار الثالث .

وتوجه الرئيس بكلمته معلنًا أن بريطانيا أصبحت في حالة حرب مع ألمانيا، وما أن أنهى كلمته، حتى سمعنا صوتًا حادًا غريبًا ينطلق، سرعان ما اعتدنا عليه فيما بعد، وهبطنا إلى الملجأ المخصص لنا على بعد مائة ياردة من البيت، ويتألف من قبو يلجأ إليه السكان، وكانت دلائل المرح بادية على الوجوه، وهي عادة إنكليزية يتمسك بها الإنكليز في أوقات الشدائد.

وبعد عشرة دقائق دوت الصفارة من جديد معلنة انتهاء الغارة، فصعدنا وتفرقنا إلى بيوتنا وتوجهنا إلى أعمالنا، وكان على أن أتوجه إلى مجلس العموم الذي اجتمع عند الظهر حسب العادة بعد أن تلونا صلاة استهلالية قصيرة، وفي أثناء الجلسة تلقيت رسالة من رئيس الوزراء يطلب مني موافاته إلى مكتبة بعد انتهاء الجلسة، وقال لي المستر تشمبرلين: إنه يعرض على وزارة البحرية، مع مقعد في وزارة الحرب، وسررت جدًا لهذا العرض، فقد كنت آمل أن يعهد إليَّ بمهمة معينة محددة، وقد عرضت على هذه المهمة بالإضافة إلى مركزي السابق في الوزارة.

وما إن توليت مركزي في وزارة الحربية، حتى بعثت بكلمة سريعة إلى الأميرالية، أخبرهم فيها عن توليتي للقيادة فورًا، وأبلغهم بأني سأصل إلى الأميرالية في تمام الساعة السادسة، وكان المجلس رقيقًا جدًا إذ بعث بهذا الخبر الطريف إلى جميع الوحدات يقول: «لقد عاد ونستون»، وهكذا رجعت مرة أخرى إلى نفس الغرفة التي غادرتها حزينًا منذ ربع قرن، عندما تنحيت عن وزارة البحرية بعد استقالة اللورد فيشر، وعندما جلست إلى مقعدي القديم، رأيت شنطة الخرائط القديمة التي أعددتها في سنة ١٩١١ م، وفيها خريطة بحر الشمال التي كنت أطلب من دائرة المخابرات أن تسجل لي عليها تحركات الأسطول الألماني كل يوم، كي أكون على اطلاع دائم على تحركاته، وهكذا بعد مضي ربع قرن، عاد نفس الخطر القاتل يهددنا مرة أخرى، وها نحن نضطر مرة أخرى إلى حمل السلاح لنصرة بلد صغير تعرض للغزو وأن نقاتل دفاعًا عن حياتنا وشرفنا ضد قوة وغضب شعب شجاع هو الشعب الألماني المحب للنظام، والبعيد عن الرحمة...

كان أول عمل قمت به في وزارة البحرية، تشكيل دائرة خاصة بي للأرقام، وعهدت

إلى الأستاذ ليندمان، صديقي والمؤتمن لدي منذ سنوات بها، وقد اضطررت على إبقائه بصورة مستديمة مع نخبة من الرجال الأخصائيين والاقتصاديين الذين لا يهتمون بشيء سوى بالحقائق والوقائع، وقد استطاعت هذه المجموعة من الرجال الأكفاء أن تقدم أصدق الجداول والرسوم، وتشرح لي سير الحرب يومًا بيوم.

ولم تكن ثمة هناك دائرة خاصة للإحصاء، فقد كانت الوزارات تقدم ما لديها حسب أرقامها وحساباتها، وكانت كل وزارة تتبع طريقة في الإحصاء تختلف عن طريقة زميلتها الأخرى، كما كانت الوزارات تتحدث بلغات واصطلاحات مختلفة، كثيرًا ما كانت تخلق البلبلة وإضاعة الوقت، أما أنا فكانت مصادري كلها أكيدة وثابتة في المعلومات التي كنت أقدمها.

التدمير السريع لبولندا:

يقول تشرشل:

في مجلس الوزراء كنا نراقب عمليات التدمير السريعة لدولة ضعيفة، حسب البرنامج الذي أعده هتلر، فقد قذف بألف وخمسمائة طائرة إلى بولندا كما أرسل جميع فرقة الآلية والمدرعة، التي اشتركت مع ست وخمسين فرقة أخرى من المشاة، ولم يكن البولنديون أكفاء لملاقاة هذا العدد الضخم، أو هذه المعدات الهائلة، كما لم يكونوا قد استعدوا ورسموا خطة حكيمة لحماية أنفسهم، فكل ما عملوه من استعداد عسكري أنهم وزعوا جيشهم على طول الحدود، بينما بقيت البلاد دون أية قوة احتياطية، وهكذا لم تصمد بولندا أمام الجيش الألماني إلا أسبوعين اثنين، وما لبث جيشها الذي يعد مليونين، أن فقد معظم محاربيه وأضحى لا قيمة له.

أما روسيا، فقد أرسلت بجيوشها في السابع عشر من شهر أيلول عبر حدود بولندا الشرقية الخالية من أي مقاومة، ثم سارت غربًا، وفي الثامن عشر منه تلاقت مع الجيوش الألمانية في بريست ليتوفسك، وزادت بذلك عملية التدمير المخيفة ودافعت وارسو بشجاعة فائقة واستسبل أبناؤها، وبعد عدة أيام من القصف الجوي المستمر، من المدفعية

الألمانية الثقيلة التي نقلت عبر الطرق الرئيسية الألمانية من الحدود الغربية ، توقفت إذاعة وارسو عن البث ، ودخل هتلر إلى المدينة الخربة ، وانتهى كل شيء خلال شهر واحد وأضحي الشعب البولندي الذي يبلغ عدده خمسة وثلاثين مليونًا تحت رحمة الغزاة الذي أمعنوا فيه تقتيلاً .

لقد شاهدنا تكتيكًا جديدًا من التعاون الوثيق بين القوات الجوية المغيرة والقوات البرية الزاحفة، والقصف العنيف للمدن وطرق المواصلات الرئيسية كذلك رأينا تسليح الطابور الخامس وبث العيون ، وهبوط المظليين بصورة واسعة النطاق ، كما رأينا الاندفاع الهائل لقوات ضخمة من الآليات والمدرعات التي لا يمكن مقاومتها ... ولم تكن بولندا آخر من تحتم عليها أن تعاني مثل هذه المحنة .

❖ ❖ ❖

رسالة روزفلت:

يقول تشرشل :

ساد الجمود لفترة طويلة ، العالم الغربي ، بعد هجوم هتلر الساحق على بولندا ، وعمت الدهشة لهذا التوقف الغريب ، بعد أن أعلنت فرنسا وبريطانيا الحرب على ألمانيا .. إلا أن التحرشات الألمانية ، وعمليات الهجوم المباغت على السفن التجارية في البحر ، قد أزعج حركة التجارة ، وبدأت السفن التجارية ، تغادر الموانئ يوميًا على شكل مجموعات وقوافل وتزودت كل واحدة منها بمدفع مضاد وبحارة مدربين ، وراحت كانسات الألغام تجوب البحار بالإضافة إلى القطع البحرية الصغيرة المجهزة بقنابل الأعماق ضد الغواصات وأدت عملها على خير ما يرام، وشعرنا بأن هجوم الغواصات الألمانية على السفن التجارية قد انتهى، وغدت البحار تحت إشرافنا وسيطرتنا ، وكان من المتوقع أن يزداد عدد الغواصات الألمانية بعد مدة وجيزة ، لأن بناء الغواصات كان يجري في جميع الموانئ الألمانية بسرعة هائلة، وكان علينا أن ننتظر بدء حرب الغواصات خلال سنة أو سنة ونصف على الأكثر ، إلا أننا كنا ننتظر إكمال بناء مدمراتنا وقطعنا المضادة للغواصات التي أصبحنا بفضلها نملك زمام الأمور لمواجهة الخطر بقوة .

وتلقيت رسالة من الرئيس روزفلت، وكنت قد قابلته مرة واحدة أثناء الحرب الأولى في حفلة عشاء، وقد أدهشتني حيويته وشبابه وحضور ذهنه، وقد كتب لي في رسالته الشخصية تلك: «لما كنا قد توصلنا إلى مراكز مشابهة أثناء الحرب العالمية الأولى، فإني أريد أن تعلم مدى سروري وغبطتي حين علمت برجوعك مرة أخرى إلى الأميرالية، وربما تكون مشاكلكم قد ازدادت تعقيدًا، إلا أن المشاكل الرئيسية لم تتغير، وفي هذه المناسبة أود أن أؤكد لك ولرئيس الوزراء عن استعدادي التام وترحيبي الكبير حين ترغبون الاتصال بي شخصيًا بواسطة رسائل مغلقة، وأن تنقلا لي كل ما تريدان نقله، وبوسعكما إرسال رسائلكما الشخصية ضمن حقيبتنا الدبلوماسية أو حقيبتكم».

وأجبت على رسالته في الحال واستخدمت توقيع «شخص من البحرية» وبدأنا بذلك سلسلة من المراسلات الطويلة الخالدة التي بلغ عددها ألف رسالة، والتي استمرت حتى وفاة الرئيس روزفلت.

❖ ❖ ❖

وقع في شهر تشرين الأول حادث أثر على الأميرالية بشدة، فقد جاء التقرير يقول أنه في ليل الرابع عشر من الشهر ذاته دخلت غواصة إلى ميناء سكابافلو، وأغرقت إحدى بوارجنا وهي في الميناء، بعد أن انطلقت الطوربيدات بشكل لا يصدق، وأصاب أحدهما قوس البارجة وأحدث فيه انفجارًا كبيرًا، ولم يصدق قبطان البارجة ما حدث لبارجته وهي راسية في الميناء مطمئنة، وظن أن الانفجار داخلي، ومرت عشرون دقيقة بين الطوربيد الأول والثاني الذي ألحقته بسيل كبير منها فأغرقت البارجة بعد أن تحطمت شر تحطيم، وفي عشرة دقائق ابتلعتها المياه، وكان معظم البحارة في مراكز عملهم، لكن السرعة التي تم فيها إغراق البارجة جعل من المستحيل عليهم النجاة من الغرق المحتم.

ولا ريب أن هذه المأساة، كانت عملاً بطوليًا رائعًا لقائد الغواصة الألمانية القبطان برامين، وقد اهتز الرأي العام البريطاني لهذا العمل الجريء، وكان في إمكان هذا الحادث أن يقضي على أي وزير من الوزراء لو اعتبر مسؤولاً عن الإجراءات الدفاعية التي اتخذت قبيل

الحرب ، أما لكوني حديث عهد في الوزارة ، فقد تخلصت من هذه الأزمة ومن اللوم ومن استغلال المعارضة لهذا الحادث .

وجاءنا الخطر المميت الثاني ، فقد أغرقت اثنتا عشرة سفينة تجارية عند مدخل موانئنا خلال شهري أيلول وتشرين الأول ، بالرغم من تنظيم تلك الموانئ من الألغام ، وقد شكت الإميرالية على الفور ، بإمكانية استخدام العدو للألغام المغنطة ، ولم تكن هذه الألغام جديدة علينا ، فقد استخدمناها على نطاق ضيق في نهاية الحرب الأولى ، لكن الأضرار الفظيعة التي يمكن أن تحدثها الألغام الأرضية ، لم يكن فهمه شيئًا سهلاً ، وكان من المتعذر علينا أن نجد طريقة لعلاج هذه المشكلة الجديدة قبل أن نرى نموذجًا من هذه الألغام ، وقد تطورت الأعمال وزادت الخسائر ، إذ بلغت خلال شهري أيلول وتشرين الأول نحوا من ستة وخمسين ألف طن ، مما حدًا بهتلر إلى الإشارة إلى هذا «السلاح السري» الجديد الذي لا يمكن اتقاؤه ، وفي ذات ليلة ، بينما كنت في شارتويل جاءني الأميرال باوند ، وقد بدأ عليه القلق والاضطراب وأخبرني أن ست بواخر جديدة قد أغرقت عند مداخل نهر التايمز ، وكانت البواخر التي تدخل موانئنا وتخرج منها تجاوز المئات كل يوم ، وكانت حياتنا كلها متوقفة على هذه الحركة المستمرة ، ولا شك أن الخبراء لدى هتلر قد أبلغوه أن هذا النوع الرهيب من الهجوم سيقضي علينا ويدمرنا ، ومن حسن الحظ أن هتلر كان ينتج هذا السلاح على نطاق ضيق محدود .

وفي الثاني والعشرين من شهر تشرين الآخر ، وفي تمام الساعة التاسعة شوهدت طائرة ألمانية تسقط شيئًا ضخمًا بمظلة كبيرة إلى البحر قرب شوبارنيس ، ويطوق الساحل هنا مساحات شاسعة من الطمي التي تظهر عند حدوث المد ومن الممكن فحص هذا الشيء الضخم حال حدوث الجزر ، وهنا ساعدنا الحظ وواتتنا الفرصة المناسبة ، وفي الحال استدعى إلى مركز الأميرالية ضابطان من أبرز الضباط المتخصصين بالأسلحة البرمائية وهما : أوفري ولويس ، وتحدثت معهما ومع لورد البحر الأول ، واستمعت إلى آرائهما ، وفي تمام الساعة الواحدة والنصف بعد منتصف الليل توجها إلى ساوثيند لأداء مهمتها الخطرة في الكشف عن هذا الشيء الغامض ، وتمكنا قبل فجر يوم الثالث والعشرين من العثور على

اللغم وفحصه .

وبدأت عملية دقيقة عندما وجد الضابطان لغما آخر قريبًا من اللغم الأول ، وراح أوفري يحاول تعطيل اللغم الأول ، بينما وقف زميله لويس ومعه البحار القدير فيرنيكومب يراقبه استعدادًا لكل مفاجأة ، وبعد ساعات رهيبة تم تعطيل اللغم الأول واستخلاصه ، ثم أرسل إلى بورتسماوث لإجراء الدراسات الدقيقة عليه ، ووصل في الحال أكثر من مئة ضابط ليشاهدوا الخطر الذي كان يهدد حياتنا .

وبدأنا منذ ذلك الحين سلسلة من التجارب العلمية ، بعد أن تمكنا من اكتشاف سر تركيب الألغام ، لاختراع وسائل الدفاع ضد هذه الألغام وتوصلنا إلى اختراع بعض الأسلاك الكهربائية وتطويق السفن بها ، إلا أن هذه الطريقة لم تؤد إلى النتيجة المطلوبة ، فقد استمرت حوادث الانفجارات لكن السفن المصابة لم تغرق في الحال ، بل كانت تستمر في مسيرها إلى أقرب مرفأ لإصلاحها من جديد .

وبعد مدة طويلة من التجارب توصلنا إلى اختراع وسائل أكثر فعالية لمكافحة الألغام ، وكانت النتيجة مدهشة ، وتمكنت أخيرًا كانسات الألغام من تطهير البحار من جميع الألغام المزروعة وبدأ الخطر يزول ، وقد كلفتنا هذه العملية الكثير من المجهود الحربي ، واضطررنا إلى تحويل الكثير من المعدات والأموال من ميادين أخرى إلى هذا الميدان، وقد جندنا لهذه العملية الهامة ما يقارب الستين ألف رجل ، إلا أن النتائج كانت مذهلة وتأثيرها المعنوي على رجالنا ورجال أسطولنا التجاري كانت رائعة ، ولم نكن حتى ذلك الوقت قد تعرضنا لأي اعتداء معين في الميدان الواسع للمعارك البحرية ، لكن هذا الاعتداء سرعان ما حدث ...

ففي يوم الثالث والعشرين من شهر تشرين الآخر ، شاهد الطراد المسلح «راولبندي» بينما كان يقوم بعملية استكشاف بين أيسلندا وفاروس، شاهد بارجة عدوة تقترب منه بسرعة ، وظن قائد الطراد أن البارجة هي بارجة الجيب «دويتشلاند» فأبرق إلى الإدارة المركزية في الحال ، وكان قائد الطراد يعلم أنه من الجنون أن يحاول الدخول في معركة بحرية مع البارجة العدوة ، أما الطراد فلم يكن أكثر من سفينة تجارية تحولت إلى طراد مجهز بأربع مدافع قديمة من عيار إحدى عشرة بوصة لذلك أبرق إلى الإدارة المركزية وقرر المجازفة

والقتال حتى النهاية ، واقتربت البارجة بسرعة هائلة وراحت تطلق نيرانها من مسافة عشرة آلاف ياردة ، فرد الطراد عليها ، وبدأت النيران الهائلة تنصب عليها حتى تحولت إلى كتلة من النار ، وما لبثت أن غرقت بعد حلول الظلام مع قبطانها و ٢٧٠ رجلاً من رجالها الشجعان.

وبالطبع لم تكن البارجة العدوة هي البارجة «دويتشلاند» وإنما كان الطراد «شارنهورست» ومعها «غنيزناو» ، اللذان غادرا ألمانيا لمهاجمة قطع أسطولنا في الأطلنطي ، إلا أنهما بعد أن اصطدما براولبندي ، اضطرا إلى العودة في الحال بعد اكتشاف أمرهما ، وهكذا لم تذهب تضحيات رجال الطراد البواسل هباء ، فقد تمكن الطراد «نيوكاسل» من التقاط إشارة الطراد «راولبندي» وتوجه إلى ميدان المعركة وحاول مطاردة العدو ، إلا أن هذا تمكن من الإفلات منه .

وفي شهر آب وصلت الأنباء إلى القيادة العليا ، أن بارجة أو اثنتين قد غادرتنا ألمانيا متوجهة إلى الأطلنطي ، فقام أسطولنا في الحال بالبحث عنهما، وعلمنا بعد مدة أن البارجة غراف شبي الألمانية قد أغرقت إحدى بواخرنا الضخمة كليفت في شهر أيلول ، وذلك قرب برنا مبوكو ، واضطربت الإميرالية لهذا النبأ المفجع ، وضح الرأي العام ، وارتسمت علامات الاستفهام وراح الهمس يدور : «أين هو أسطولنا ؟ » ... فتألفت على الفور وحدات مسلحة لمطاردة البارجة وإغراقها ، وقد انضم إلى الوحدات عدد من حاملات الطائرات والبوارج والطرادات المجهزة بقوة كافية لتتمكن من القضاء على البارجة الألمانية .

وخلال الأشهر التالية كانت تسع وحدات بحرية مطاردة تجوب البحار بحثًا عن البارجتين الألمانيتين «دويتشلاند» و «غراف شبي» ، وكانت الثانية أكثر جرأة من الأولى ، فقد استمرت بنشاطها ، فكانت تضرب السفن الصغيرة ثم تختفي في الآفاق الشاسعة ، واستمر البحث عن «غراف شبي» إلى أن عثر عليه في الثاني عشر من كانون الأول ، قرب مصب نهر لابلاتا ، من قبل الطراد «أجاكس» ، وكان على ظهره الكومودور هاروود .

وتم في الحال حصار البارجة العدوة وانضم إلى المعركة الطرادان «أخيل» و«لايكسيتر»، وبدأت معركة حامية الوطيس واشتعلت البحار بالنيران اللاهبة لمدة ساعة وعشرين دقيقة ، وأصيبت طراداتنا بأضرار بالغة مما اضطرها إلى الانسحاب تحت ستر

الدخان الكثيفة بانتظار حلول الظلام كما أصيبت البارجة العدوة وشوهدت أبراجها تتساقط مشتعلة ، وكانت فرصة العدو الذهبية حين شعر قائد الطراد بأن الذخيرة ستنضب فاضطر إلى الانسحاب تاركًا الفرصة للبارجة العدوة للانسحاب إلى ميناء مونيتفيديو فتبعها الطرادان البريطانيان دون أن يشتبكا معها في أي معركة ، ودخلت البارجة إلى الميناء للتزود بالوقود ولإصلاحها من جديد ، بينما وقف الطرادان بانتظارها وإغراقها في الحال عند خروجها من الميناء .

وأبرق قائد البارجة في السادس عشر من كانون الأول إلى القيادة يقول أن سبيل النجاة قد سد أمامه وطلب تزويده بالتعليمات اللازمة هل يقوم بإغراق الطراد أم يستسلم ؟ وجاءته التعليمات من الأميرالية الألمانية : «حاول أن تبقى في المياه المحايدة ... ثم حاول أن تتجه إلى بيونس إيرس إن استطعت ، ولا تستسلم في أورغواي ... وإذا قررت إغراق البارجة دمرها تدميرًا كاملاً» .

وهكذا ، بعد ظهر اليوم التالي ، شوهدت بحارة البارجة تغادرها إلى إحدى السفن الألمانية الراسية في الميناء ، وعند المساء توجهت البارجة ببطء إلى عرض البحر حيث كانت طراداتنا بانتظارها، وما أن اقتربت من عرض البحر حتى سمعنا انفجارًا مدويًا وشاهدنا النيران تشتعل في البارجة العدوة ، فعلمنا أن «غراف شبي» قد أغرقت نفسها ، كما علمنا أن قائدها لانغسروف قد أصيب بانهيار عصبي لخسارته الفادحة فانتحر بعد يومين .

obeikandl.com